

الدرس الخمسون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ؛ صلى الله وسلم عليه وعلى آله وأصحابه أجمعين . أما بعد:

يقول الإمام المجدد شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب التميمي رحمه الله تعالى في «كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد» :

باب ما جاء في المصوّرين

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة)) أخرجاه.

قال المصنف الإمام شيخ الإسلام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله تعالى في كتابه التوحيد : ((باب ما جاء في المصوّرين)) ؛ أي ما جاء في شأن المصوّرين من الوعيد والتهديد في غير ما حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم مما يدل على عظم خطر هذا الجرم وكبر هذا الذنب وأنه من كبائر الذنوب وعظائم الآثام . ومن يتأمل النصوص التي ساقها المصنف رحمه الله تعالى في هذا الباب وغيرها مما لم يسق رحمه الله تعالى يجد أن التصوير جاءت الشريعة بتحريمه وجاءت بالتهديد العظيم والوعيد الشديد لفاعل ذلك ؛ وذلك لما في التصوير من المضاهاة لخلق الله سبحانه وتعالى كما سيأتي ، ولأنه من أعظم الذرائع المفضية إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، بل إن الشرك إنما دخل على الناس من جهة التصوير ومن جهة رفع البنيان على القبور -قبور الأنبياء والصالحين أو غيرهم- ؛ ولهذا سيأتي في هذه الترجمة قول النبي عليه الصلاة والسلام لما بعث علياً رضي الله عنه قال له : ((لا تدع صورة إلا طمستها ، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته)) ؛ وذلك أن هذين الأمرين من أعظم الأبواب والأسباب والذرائع للوقوع في الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، فجاءت الشريعة بالنهي عن التصوير والمنع منه والتهديد على فعل ذلك والوعيد عليه لما فيه أولاً من المضاهاة لخلق الله سبحانه وتعالى كما سيأتي في حديث عائشة الذي ساقه المصنف رحمه الله تعالى ، ولما فيه من ذريعة للشرك بالله سبحانه وتعالى كما يفيد حديث علي بن أبي طالب الآتي أيضاً عند المصنف رحمه الله تعالى .

أورد رحمه الله أولاً حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ((قال الله تعالى: ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)) ؛ والاستفهام هنا في قوله «ومن أظلم» بمعنى النفي أي لا أحد أظلم ممن هو كذلك ، وهذا فيه أن الذي يصنع هذا الأمر ظلمه عظيم وجنايته بالغة .

قال : ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي ، فليخلقوا ذرة، أو ليخلقوا حبة، أو ليخلقوا شعيرة)) قال ذلك عليه الصلاة والسلام بشأن المصورين ، سواء كانت الصورة تمثالا أو رسماً أو نسجاً أو نحتاً أو غير ذلك ، إذا كانت صورةً لذي روح فإن فيه هذا الوعيد ، لأنه بهذا العمل أخذ يشبهه بخلق الله ويضاهي بخلق الله سبحانه وتعالى فجاء في الحديث أنه لا أحد أظلم منه . قال ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)) .

قال: ((فليخلقوا ذرة وليخلقوا حبة وليخلقوا شعيرة)) وهذا الأمر للتعجيز ؛ أي أنهم أعجز من ذلك ، ولو كان هذا الشيء صغيراً أو حقيراً ، سواء كان حياً أو جماداً فهم أعجز من ذلك .

قال : ((فليخلقوا ذرة)) الذرة معروفة وهي صغيرة جداً ، قال ((فليخلقوا ذرة)) ؛ الذر: هو صغار النمل ، فهذا المخلوق الصغير جداً تحداهم الله عز وجل وأظهر عجزهم بأنهم عاجزون عن أن يخلقوا ذرةً تمشي وتتحرك وتأكل وتقوم بالأعمال التي يقوم بها الذر ، فهم أعجز من ذلك .

((وليخلقوا حبة)) حبة حنطة أو غير ذلك من البذور ، وتكون مأكولةً لها طعم ، وإذا وضعت في الأرض وسقيت بالماء أنبتت .

((ليخلقوا حبة ، وليخلقوا شعيرة)) فذكر هذه المخلوقات الصغيرة منها ما هو من الحيوانات ومنها ما هو من الجمادات؛ إظهاراً لعجز هؤلاء وعدم قدرتهم ، وأيضاً بيانا لعظم ظلمهم عندما أخذوا يصوّرون يضاهئون بخلق الله سبحانه وتعالى ، يصوّرون سواءً يرسمون ذلك رسماً ، أو ينحتونه نحتاً ، أو ينسجون على قماش نسجاً ، أو يصنعونه تمثالا ، أو غير ذلك ؛ يشمل هذا كله هذا من الأحاديث التي جاء فيها الوعيد على التصوير وأن أهله من أظلم الناس أي من أشدهم ظلماً لارتكابهم هذا الجرم العظيم .

وهذا يفيدنا أن التصوير من الظلم ، بل هو من عظيم الظلم وأشدّه ، لما يترتب على التصوير من المفسدات العظيمة والأضرار الجسيمة والجناية على الناس في عقائدهم ، عندما يحصل بسبب هذه التصاوير التعلقات الباطلة بتلك الصور والتعظيم لها والالتجاء إليها وتقديسها وغير ذلك من الأمور ، إذ إن هذه التصاوير من أعظم الذرائع المفضية إلى الإضرار بالإيمان بالله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله :

ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ((أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)).

قال: ((ولهما)) أي للبخاري ومسلم المتقدم ذكرهما بقوله في الحديث الذي قبله «أخرجاه» .

قال: ((ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)) ؛ وقد جاء هذا الحديث في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما أن النبي صلى الله عليه وسلم قال : ((أَشَدُّ النَّاسِ عَذَابًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْمُصَوِّرُونَ)) ، وهم المعنيون بهذا الحديث حديث عائشة رضي الله عنها بقول النبي عليه الصلاة والسلام ((الذين يضاهئون بخلق الله)).

ومعنى «يضاهئون» جاء مفسراً في بعض روايات الحديث كما في رواية للحديث في صحيح مسلم قال بدل ((يضاهئون)) : «يشبهون بخلق الله» ، وهذا معنى يضاهئون ؛ «يضاهئون»: أي يشبهون بخلق الله ، عندما يرسم أو ينقش أو ينحت صورة على هيئة إنسان أو على حيوان أو على هيئة طائر أو غير ذلك من الحيوانات فإنه بهذا الصنيع يشبه بخلق الله ويضاهي بهذا الذي صنعه خلق الله سبحانه وتعالى ، ولهذا توعدهم الله عز وجل بأشد الوعيد وأشد العذاب كما في هذا الحديث قال : ((أشد الناس عذاباً يوم القيامة الذين يضاهئون بخلق الله)).

ومن المعلوم أن هذه الأشدية في لعذاب للناس عموماً إنما هي للكفار ، وما من شك أن الذي يصور التصاوير لهذا **فِرْعَوْنَ أَشَدَّ الْعَذَابِ** [غافر: ٤٦] . فهذه الأشدية إنما هي للكفار ، ولأنه من شك أن الذي يصور التصاوير لهذا الغرض للمضاهاة ((الذين يضاهئون بخلق الله)) لاشك أن هذا العمل كفر أكبر ناقل من الملة ، وكذلك من كان يصنع هذه الصور للناس من أجل أن يُعبد من دون الله تبارك وتعالى فلاشك أن هذا أيضاً من الكفر الأكبر الناقل من ملة الإسلام ، وتكون الأشدية هنا على بابها ، أشدية العذاب أي للكفار ، لأن هؤلاء مثل فرعون وأضرابه من أئمة الكفر وكبراء أهل الباطل . فالأشدية هنا للعذاب أي على كفر هؤلاء بالله سبحانه وتعالى وعملهم أيضاً على الترويج للكفر والدعاية إليه ونشر الوسائل والأسباب التي تفضي بالناس إلى الوقوع فيه .

ولهذا في معنى قوله «أشد الناس عذاباً» من أهل العلم من حمل هذه الأشدية في العذاب في حق من صنع هذه التصاوير من أجل المضاهاة مستشهداً بلفظ الحديث ((الذين يضاهئون بخلق الله)) . ومن أهل العلم من حمله على أن هذه الأشدية في العذاب في حق من صنعه لأجل أن يُعبد من دون الله ترويحاً للإشراك بالله سبحانه وتعالى ونشراً له بين الناس بصناعة وإيجاد هذه الأشياء التي ينشرها بين الناس لتُعبد من دون الله تبارك وتعالى فله هذه الأشدية من العذاب الذي هو عذاب الكافر .

● فإذا كان هذا التصوير من أجل المضاهاة ، أو كان هذا التصوير من أجل أن تُعبد من دون الله تبارك وتعالى فالأشدية هنا هي أشدية العذاب الذي هو للكافر مثل ما قال الله عز وجل في شأن فرعون في الآية المتقدم الإشارة إليها .

● أما إذا كان الذي يصور لا لهذا ولا لهذا ؛ لم يصور لا للمضاهاة ولا أيضا لأجل أن تعبد من دون الله وإنما لغرض دون ذلك ، فهذا من المعاصي وهو من كبائر الذنوب ، وتكون الأشدية هنا نسبية ، أشد الناس عذابا : أي بالنسبة لأهل الكبائر التي هي دون الشرك بالله سبحانه وتعالى ، ولهذا جاء في بعض روايات الحديث : «إِنَّ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ عَذَابًا» .

قال : ((ولهما عن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : أشد الناس عذابا يوم القيامة الذين يضاهون بخلق الله)) ، ثم إن من يقف على هذا الوعيد وأمثاله مما جاء في السنة عن نبينا الكريم عليه الصلاة والسلام يدرك الخطورة العظيمة لهذا التصوير ، وأن الوعيد الذي عليه ليس بالأمر الهين ، جاء في الأحاديث اللعن ، وجاء أنهم أشد الناس عذابًا ، وجاء أنه لا أظلم منهم ، تنوعت الأحاديث في التخليط والوعيد والتهديد على هذا الجرم مما يدل على خطورته البالغة وكبر هذا الذنب وعظمه .

قال رحمه الله :

ولهما عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: ((كل مصوّرٍ في النار، يُجعل له بكل صورة صوّرها نفس يعذب بها في جهنم)).

قال : ((ولهما)) أي للبخاري ومسلم .

((عن ابن عباس رضي الله عنهما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: كل مصور في النار)) وهذا فيه وعيد شديد لجميع المصورين ، قال ((كل مصور في النار)) ولم يستثن في هذا الحديث نوعًا من التصوير ، إلا إذا كان تصويرًا لغير ذوات الأرواح لأنه جاء ما يدل على عدم حرمة ، أما صور ذوات الرواح سواء كانت صور أناس أو صور حيوانات أو صور طير أو صور أسماك فهذه كلها يتناولها هذا الوعيد ، وأيضا سواء كانت هذه الصورة لها ظل أو ليس لها ظل ، سواء كانت رسما باليد أو نحتًا في جدار أو في لوح ، أو كانت صناعةً على هيئة تمثال أو نسجًا في قماش أو غير ذلك فإنه يتناوله هذا الوعيد، قال عليه الصلاة والسلام ((كل مصور في النار)) فهذا يتناول جميع هذه الصور بجميع صفاتها وهيئاتها لما كان لذوات الأرواح . وهذا وعيد شديد ((كل مصور في النار)) ؛ إن كان الذي يصوّر صور للمضاهاة أو صوّر لُعب من دون الله فهذا كفر بالله وله في النار ما للكافرين من الخلود ، وأما إذا كان صوّر لا لهذا وإنما لأمرٍ دون ذلك دون الكفر بالله فله هذا الوعيد شأن الوعيد الذي

جاء في غير ما حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لأهل الكبائر بأنهم في النار ، وله من العذاب في النار على قدر جرمه ، ولا يخلد في النار إلا من كان كافراً مشركاً بالله سبحانه وتعالى كما قال الله عز وجل : ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨] .

قال : ((يُجعل له بكل صورة صَوْرَها نفسٌ يعذب بها في جهنم)) ؛ يُجعل له بكل صورة صَوْرَها نفسٌ : أي أن تعذيبه في جهنم بعدد الصور التي صَوْرَها ، وكل صورة صَوْرَها يُجعل فيها نفس يعذب بها ، فيعذب بالصورة نفسها التي صَوْرَها ، فتعذيبه بما صنعت يده وبما اقترفت يده ، بجميع الصور ألف ألفين أقل أو أكثر ، بكل صورة صَوْرَها يعذب في نار جهنم . قال : ((يُجعل له بكل صورة صَوْرَها نفس يعذب بها في جهنم)) .

قال رحمه الله

ولهما عنه مرفوعاً: ((من صَوَّرَ صورة في الدنيا كُلف أن ينفخ فيها الروح ، وليس بنافخ)) .

قال ((ولهما)) أي للبخاري ومسلم ((عنه)) أي عن ابن عباس رضي الله عنهما ((مرفوعاً)) أي إلى النبي عليه الصلاة والسلام .

((من صَوَّرَ صورة في الدنيا)) أي ذي روح ((كُلف أن ينفخ فيها)) أي الصورة ((الروح ، وليس بنافخ)) ما معنى ذلك ؟ أي أن عذابه يستمر ، يقال له انفخ فيها الروح وعذابك يستمر إلى أن تنفخ فيها الروح ، وما هو بنافخ ، ولهذا جاء في بعض الروايات -روايات هذا الحديث- قال ((حتى ينفخ فيه الروح، وليس بنافخ أبداً)) ؛ وهذا فيه أن هذا العذاب يستمر لأنه يقال له انفخ فيها الروح ، العذاب مستمر إلى أن تنفخ فيها الروح ، هذه الصورة التي صنعتها بيدك لتضاهي بها خلق الله سبحانه وتعالى تعذب بالنار بسبب ما صنعت ويقال له : انفخ في هذا الذي صنعت الروح فما هو بنافخ ، فيبقى عذابه لأنه أعجز من أن ينفخ في تلك الصورة أو الصور التي صَوْرَها الروح . قال : ((من صور صورة في الدنيا كلف -أي يوم القيامة- أن ينفخ فيه الروح وليس بنافخ)) .

قال رحمه الله :

ومسلم عن أبي الهياج قال: قال لي علي رضي الله عنه : «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبراً مشرفاً إلا سويته» .

قال : ((ولمسلم عن أبي الهياج الأسدي قال: قال لي علي رضي الله عنه: ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؟ أن لا تدع صورة إلا طمستها، ولا قبرا مشرفاً إلا سويته)) ؛ أي أن النبي عليه الصلاة والسلام قبل ذلك بعث عليا رضي الله عنه بذلك ، بعثه أن لا يدع صورةً إلا طمسها ولا قبراً مشرفاً إلا سواه ، ومعنى «مشرفاً»: أي مرتفعاً ؛ بُنيت عليه الأبنية رُفِعَ عليه البناء .

والأصل في القبر إذا دفن الميت أن لا يرتفع إلا بقدر التراب الذي أُخرج منه لا يُرَاد على ذلك ، لا يُرَفَع لا بتراب ولا بغيره وإنما رفعه في حدود التراب الذي أُخرج منه حتى يتبين أنه قبر ، أما رفعه بأبنية أو بقباب أو بغير ذلك فهذا كله جاءت الشريعة بتحريمه والوعيد عليه وأن صانع ذلك أشَر الناس ؛ وذلك لأن هذا الصنيع وكذلك التصوير من أعظم الأمور والوسائل المفضية إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ، وقد تقدم معنا عند المصنف رحمه الله تعالى في «باب ما جاء من التغليظ فيمن عبد الله عند قبر رجل صالح فكيف إذا عبده» ساق المصنف رحمه الله هناك حديث عائشة في الصحيح أن أم سلمة ذكرت لرسول الله صلى الله عليه وسلم كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من الصور فقال : ((أولئك إذا مات فيهم الرجل الصالح أو العبد الصالح بنوا على قبره مسجداً وصوروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله)) . قال المصنف -وهذا نقله عن شيخ الإسلام ابن تيمية - : «فهؤلاء جمعوا بين الفتنتين فتنة القبور وفتنة التماثيل» وهاتان الفتنتان -فتنة البناء على القبور ، وفتنة التماثيل والتساوير- هي من أعظم الفتن التي أفضت بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ، لأن كان الأمر في الأمم أنه إذا مات فيهم الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً أي بنوا عليه بناية وشيدوا عليه بنياناً وصنعوا تصاوير على صورته وهيئته فتكون تلك التماثيل وتلك البنيان ذريعة للوقوع في الشرك ، بل إن الشرك وقع في الأمم بسبب ذلك ، كما مر أيضاً معنا قبل ذلك في قصة الخمسة الرجال الصالحين من قوم نوح .

فهذه التماثيل والتساوير وهذا البناء على القبور كله من الأمور التي هي من أعظم الأمور والذرائع المفضية بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى ؛ ولهذا بعث النبي عليه الصلاة والسلام علياً رضي الله عنه أن لا يدع صورة إلا طمسها ولا قبراً مشرفاً إلا سواه ، وعلي رضي الله عنه بعث أبا الهياج فيما بعثه فيه رسول الله صلوات الله وسلامه وبركاته عليه . وأيضاً مما يستفاد من ذلك : حماية المصطفى عليه الصلاة والسلام جناب التوحيد وسدّه للذرائع والوسائل المفضية بالناس إلى الإشراك بالله سبحانه وتعالى .

قال رحمه الله تعالى :

فيه مسائل ؛ الأولى: التغليظ الشديد في المصورين .

وهذا التغليظ يظهر من خلال ما ساقه رحمه الله من أحاديث تدل على أنه لا أظلم ممن فعل ذلك ، وأنهم أشد الناس عذاباً ، وأنهم يعذبون بكل صورة ؛ فجاءت أحاديث عديدة فيها التغليظ والوعيد في المصورين .

الثانية: التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله ، لقوله: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)).
فهذا فيه كما أشار رحمه الله تعالى قلة أدب أو ذهاب الأدب أو ترك الأدب مع الله سبحانه وتعالى . التنبيه على العلة وهو ترك الأدب مع الله لقوله: ((ومن أظلم ممن ذهب يخلق كخلقي)).

الثالثة: التنبيه على قدرته وعجزهم ، لقوله: (فليخلقوا ذرة أو شعيرة) .
الثالثة: التنبيه على قدرته سبحانه وتعالى وهو على كل شيء قدير ، وعلى عجزهم وأنهم أعجز من ذلك ؛ من أن يخلقوا ذرة أو يخلقوا شعيرة أو يخلقوا حبة . قال : «التنبيه على قدرته وعجزهم لقوله: (فليخلقوا ذرة أو شعيرة)»
فهذا فيه دلالة على عجز هؤلاء .

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابا.

ومثل ذلك الآية الكريمة قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضَرْبٌ مِّثْلُ فَاستَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوْ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ [الحج: ١٧٣] .

الرابعة: التصريح بأنهم أشد الناس عذابا.

وهذا جاء في حديث أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها وقد ساقه المصنف رحمه الله تعالى ، وسبق أيضًا بيان هذه الأشدية ؛ إن كانت على وجه المضاهاة ، أو من أجل أن تُعبد من دون الله ، أو كانت أيضًا لغرض غير ذلك.

الخامسة: أن الله يخلق بعدد كل صورة نفسًا يعذب بها المصور في جهنم.

وهذا مستفاد من حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال : «سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول : كل مصور في النار ؛ يُجعل له بكل صورة صورها نفسًا يعذب بها في جهنم» .

السادسة: أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح.

أنه يكلف أن ينفخ فيها الروح أي الصورة ، وهذا في حديث ابن عباس الذي ساقه المصنف ، وأنه يكلف بأن ينفخ فيها الروح وليس بنافخ ، ويستمر العذاب مثل ما جاء في بعض الروايات ((حتى ينفخ فيها الروح وليس بنافخ أبدا)).

السابعة: الأمر بطمسها إذا وجدت.

الأمر بطمسها أي الصور إذا وُجدت كما جاء في حديث علي ؛ قول النبي صلى الله عليه وسلم لعلي رضي الله عنه ((لا تدع صورة إلا طمسها)).

مر معنا في الحديث حديث أبي الهياج الأسدي في صحيح مسلم قال لي علي رضي الله عنه : «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا تدع صورة إلا طمسها ولا قبرا مشرفا إلا سويته» ، أشرت إلى أن هدي النبي عليه الصلاة والسلام كما في هذا الحديث سد الذرائع ، ولهذا منع من أمور كثيرة جدا تتعلق بالقبور من بناء عليها أو اتخاذ السرج عليها أو غير ذلك من أمور كل ذلك حماية لحمل التوحيد وسدا للوسائل المفضية بالناس إلى الشرك بالله سبحانه وتعالى ؛ فلنتأمل في كلام نستمع إليه من كتاب إغاثة اللهفان للإمام ابن القيم رحمه الله تعالى فيه المقارنة بين هذا الهدي المبارك الذي فيه الحماية لجناب التوحيد وسد الوسائل المفضية والذرائع المفضية بالناس إلى الشرك ، وبمقابل ذلك حال الضلال من المقابرة الذين خالفوا هدي النبي عليه الصلاة والسلام ، وكيف أن هذه المخالفات جرّتهم إلى شنائع عظيمة من عبادة للمقبورين وتعلق بهم وصرف لأنواع العبادة لهؤلاء المقبورين .

قال ابن القيم رحمه الله تعالى : [ومن جمع بين سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم في القبور وما أمر به ونهى عنه وما كان عليه أصحابه ، وبين ما عليه أكثر الناس اليوم رأى أحدهما مضادا للآخر مناقضا له بحيث لا يجتمعان أبداً . فنهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الصلاة إلى القبور ، وهؤلاء يصلّون إلا عندها . ونهى عن اتخاذها مساجد ، وهؤلاء يبنون عليها المساجد ، ويسمونّها مشاهد ، مضاهاةً لبيوت الله تعالى . ونهى عن إيقاد السرج عليها ، وهؤلاء يوقفون الوقوف على إيقاد القناديل عليها . ونهى أن تُتخذ أعياداً ، وهؤلاء يتخذونها أعياداً ومناسك ، ويجتمعون لها كاجتماعهم للعيد أو أكثر . وأمر بتسويتها كما روى مسلم في صحيحه عن أبي الهياج الأسدي قال : قال علي بن أبي طالب رضي الله عنه : «ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم ؛ أن لا تدع تمثالا إلا طمسته ، ولا قبرا مشرفا إلا سويته» ، وفي صحيحه أيضاً عن ثمامة بن شفي قال : «كنا مع فضالة بن عبيد بأرض الروم برودس ، فتوفي صاحب لنا فأمر فضالة بقبره فسوي» ، ثم قال : سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يأمر بتسويتها ، وهؤلاء يبالغون في مخالفة هذين الحديثين ويرفعونها عن الأرض كالبيت ، ويعقدون عليها القباب . ونهى عن تخصيص القبر والبناء عليه كما روى مسلم في صحيحه عن جابر قال : « نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن تخصيص القبر والبناء عليه وأن يُقعدَ عليه » ، ونهى عن الكتابة عليها كما روى أبو داود والترمذي في سننهما عن جابر رضي الله عنه «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن تُجصص القبور ، وأن يُكتبَ عليها» قال الترمذي : حديث حسن صحيح ، وهؤلاء يتخذون عليها الألواح ويكتبون عليها القرآن وغيره . ونهى أن يُزاد عليها غير تراجمها

كما روى أبو داود من حديث جابر أيضاً «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى أن يخصص القبر، أو يكتب عليه، أو يزداد عليه»، وهؤلاء يزيدون عليه سوى التراب الآجر والأحجار والجص. ونهى عمر بن عبد العزيز أن يُبنى القبر بالآجر وأوصى أن لا يُفعل ذلك بقبره. وأوصى الأسود بن يزيد: أن لا تجعلوا على قبري آجراً، وقال إبراهيم النخعي: «كانوا يكرهون الآجر على قبورهم». وأوصى أبو هريرة حين حضرته الوفاة: «أن لا تضربوا على قبري فسطاطاً». وكره الإمام أحمد أن يضرب على القبر فسطاطاً. والمقصود: أن هؤلاء المعظمين للقبور، المتخذينها أعياداً، الموقدين عليها السرج، الذين يبنون عليها المساجد والقباب؛ مناقضون لما أمر به رسول الله صلى الله عليه وسلم، محادون لما جاء به، وأعظم ذلك اتخاذها مساجد، وإيقاد السرج عليها، وهو من الكبائر، وقد صرح الفقهاء من أصحاب أحمد وغيرهم بتحريمه.

قال أبو محمد المقدسي: «ولو أبيع اتخاذ السرج عليها لم يلعن من فعله»، ولأن فيه تضييعاً للمال في غير فائدة، وإفراطاً في تعظيم القبور شبيه تعظيم الأصنام. قال: «ولا يجوز اتخاذ المساجد على القبور لهذا الخبر». ولأن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لعن الله اليهود اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد، يحذر ما صنعوا متفق عليه. ولأن تخصيص القبور بالصلاة عندها يشبه تعظيم الأصنام بالسجود لها والتقرب إليها. وقد روينا أن ابتداء عبادة الأصنام تعظيم الأموات باتخاذ صورهم، والتمسح بها، والصلاة عندها انتهى.

وقد آل الأمر بهؤلاء الضلال المشركين إلى أن شرعوا للقبور حجاً، ووضعوا له مناسك، حتى صنف بعض غلاتهم في ذلك كتاباً وسماه «مناسك حج المشاهد» مضاهةً منه بالقبور للبيت الحرام، ولا يخفى أن هذا مفارقة لدين الإسلام، ودخول في دين عبادة الأصنام [.

هذا العرض العظيم الذي ساقه وبينه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى يوضح لنا جلياً حكمة الشريعة في المنع من هذه الأمور والنهي عنها والوعيد الشديد على فعلها، وذلك لما تفضي إليه وتؤول بأصحابها إليه من مآلات خطيرة جداً على عقائدهم؛ من صرف للعبادة لغير الله تبارك وتعالى، والتعلق بتلك الصور. وما من شك أن الرجل الصالح الذي له مكانة في القلوب ومنزلة إذا افتقده الناس وتوفي تألموا جداً لفقده، فإذا استبقيت معالم بناء على قبره أو صور له أو نحو ذلك تبقى هذه في القلب أو توجد في القلب شيء من التعلق والارتباط بتلك الصور أو بتلك البناية، إلى أن يدخل الشيطان على هؤلاء بأن يعبدوا هؤلاء من دون الله سبحانه وتعالى.

إضافة إلى أن من وراء هؤلاء أناس لا هم لهم إلا الأكل أكل أموال الناس بالباطل، حتى إنه وجد في بعض المناطق من يبنون بناية على جيفة حمار ويشيد بناية ثم يزعم للناس أن هذا قبر السيد فلان وأنه قبرٌ معظم وله مكانة عند الناس وله أثر لقاصديه والمتقربين إليه، ثم يجلسون عنده هؤلاء السدنة الذين جعلوا هذا المكان لأكل أموال الناس بالباطل في قصص لا تزال موجودة مؤلمة جداً ومدمية، كيف أنها تحرف عقائد العوام والجهال بمثل هذا التبرير والتوريط لهؤلاء بمثل هذه التعلقات الباطلة، ثم تُنسج القصص الكاذبة والحكايات المختلقة: المرأة الفلانية

كانت لا تلد وجاءت وصنعت كيت وكيت فولدت ، والمرأة الفلانية كانت مريضة بكذا وكذا واستعصى علاجها فشُفيت ، وينسجون حكايات وحكايات ويروِّجونها بين الناس فيتقاطر الناس على مثل هذه الأمكنة بالندور والالتجاء وربما أيضا السجود والخضوع والتذلل لهؤلاء المقبورين الذين لا يملكون لأنفسهم نفعا ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا .

والعالم بُلي بأمور كثيرة من هذا القبيل ، لأن هذا مدخل قديم من المداخل التي دخل من خلالها الشيطان على الناس فورطهم في العبادة لغير الله سبحانه وتعالى والالتجاء لغيره وتقديم القرابين لغيره ، إضافةً إلى ما يكون لهؤلاء الذين حول القبور من حظوظ دنيوية . وأذكر أن أحد الأفاضل التقى بشخص من هؤلاء وقال له هل أنت مقتنع بهذا الذي تصنعه؟ وأنه حق وأنه دين الله عز وجل وأن الله يقبل؟ قال لا ؛ هذا أكل عيش ، يعني لو توقف لتوقف العيش . فكثير من هؤلاء اتخذوا مثل هذه الطرائق لأكل أموال هؤلاء بالباطل .

فنبينا عليه الصلاة والسلام جاء بالوسائل التي تحمي عقائد الناس وتحمي توحيدهم وتصونهم بإذن الله تبارك وتعالى من الضلال وأئمة الباطل يريدون فتح هذه الأمور ، وقد قال نبينا عليه الصلاة والسلام : ((إِنَّ مِنْ أَخْوَفِ مَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأَيْمَةَ الْمُضِلِّينَ)) .

سبحانك اللهم وبحمدك أشهد أن لا إله إلا أنت أستغفرك وأتوب إليك .
اللهم صلِّ وسلِّم على عبدك ورسولك نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين .